جدران الموسيقى

في المرة الأولى التي فتحت فيها عيني وفتحت أبوابي، شعرت بالوحدة. حجرًا بحجر، تربّيت لأقف، لأحمي، ولأتحمل كل الألم الذي سيُسبب لي يومًا ما. في البداية، لم أكن أعلم أن لي معنى، أن لي أهمية في الحياة. استمعت إلى العواصف، استمعت إلى الرياح، استمعت إلى جيراني يبكون ويضحكون بينما بقيت ساكنًا، أحمل شعورًا عميقًا بالفراغ. كانت جدراني لم تُلمس بعد، غير مدركة لما ستحتضنه يومًا ما. لم أعرف حقًا من أنا حتى فتحت روح جميلة بابه للمرة الأولى. من كانت هذه الروح الجميلة، ولماذا شعرت أنّ حضورها كان مألوفًا جدًا؟ هل كنت أخيرًا أصبح أكثر من مجرد حجر وجدران؟

كنت أقف ساكنًا، أستمع إلى الرياح تتلاعب بي، أتساءل إن كنت سأعرف يومًا من أنا حقًا. شعرت بالضوء يمرّ من نوافذي لأول مرة، يتراقص على الأرضية الخشبية، ويضيء الزوايا التي لم أرَها من قبل. شعرت بكل حجر مني وهو يرتجف مع نسيم الهواء، وكل خشبة في الأرضية تتنفس صمتها، والنوافذ تحدق بلا هدف إلى الخارج. شعرت بالبرد والحرارة تتغير مع أشعة الشمس التي تدخل خلسة، وكأن البيت نفسه ينتظر شيئًا لم يأت بعد. لم أعرف يومًا أن وجودي سيكون له معنى، وأن أصوات الفرح والحياة ستملأ أرجائي يومًا ما. لم أشعر بالزمن ببطء كما شعرت به حينها. شعرت أني موجود في فراغ بين اللحظات، لا هنا بالكامل، ولا غائبًا بالكامل. شعرت وكأنني مجمّد في الزمن، عالق بين الأمس واليوم، أراقب العالم من داخلي بلا أن أستطيع التحرك، بلا أن أستطيع الكلام، ولا أعرف متى سأكون حاضرًا بالكامل.

كان حضورها كنسمة هواء تنفخ الحياة في غرف لم تعرف إلا الصمت. أبوابي، التي كانت مغلقة بلا هدف، بدأت تُفتح بمعنى الحب. نوافذي لم تعد تكتفي بمراقبة العالم يمر؛ بل صارت تصغي. حتى جدراني، الصلبة والفخورة، وقفت بشكل مختلف، وكأنها مدركة أنها أخيرًا تُرى. اللحظة التي فتحت فيها فيروز هذا الباب كانت اللحظة التي أصبحت فيها شخصًا جديدًا. كانت تنظف، تلمّع، تعتني بي كما لو كنت أحد أطفالها. لم أشعر بالحياة أكثر من ذلك أبدًا. أحببت أن أشاهد فيروز وزوجها ممتنّين ببساطة الحياة التي يملكونها، والابتسامات التي تظهر بينما ينام الأطفال. في كل مرة أسمع ضحكاتهم، شعرت بدفء يمر عبر جدراني كما لو أن كل حجر ينبض بالحياة. كان النسيم يدخل من الشرفة فتضفي رائحته على كل غرفة حياة أسرية دافئة، والشموع التي كانت تشعلها ليلاً تترك ظلالًا ترقص على الجدران، تمنحني شعورًا بالحميمية والطمأنينة. لم تكن فيروز مجرد مدبرة منزل جيدة؛ كانت نورًا يزهر في كل غرفة تفتحها. كانت تجلس مع أطفالها وتكتب الأغاني، والموسيقى تنتقل في أرجاء البيت كأنه نهر من الدفء والفرح، يملأ كل زاوية بالحياة والأمل. كنت أستمع إلى أصوات البيانو وهي تتردد بين الجدران وكأنها تهمس لي: "أنت حي، أنت مهم، أنت البيت الذي يحمل الفرح".

لم أستطع أن أتخيل أن حياة جميلة كهذه ستتحول إلى مشاهد مروعة في أقل من عقد. في صباح أحد الأيام، بينما كان الأطفال يستعدون لروتينهم اليومي وكانت فيروز تُعد الأغاني، وقع صوت لم أعرف مثله من قبل وخلعني. ارتجّ لبنان تحت صدمة مدوية، محطمة نوافذي ومرجفة جدراني. شعرت بالانكسار، بالقلق، بالخوف، ومع ذلك لم أستطع فعل شيء، لم أستطع الحركة، لم أستطع الكلام. كل ما كان بوسعي فعله هو مشاهدة زياد وهلي يبكيان، وأصواتهما تتردد في أرجائي، وفيروز تتجول قلقة، تحاول جاهدة حماية ما استطاعت. الصباح الذي كان ممتلئًا بالموسيقى والحب والسعادة والضحك أصبح مليئًا بالأصوات الصاخبة. صمت صرصار الليل بينما حلّ الذعر محل الهدوء. اختفى الجيران ثانية بعد ثانية. رنّت المكالمات بلا توقف. وكانت الأخبار تبث الفظائع التي بالكاد كنت أفهمها. ما كان يومًا من أيام الفرح أصبح سيمفونية من الذّعر والخوف والارتباك. كل زاوية مني ارتجفت، عاجزة عن الحماية، عاجزة عن الحركة ، تراقب فقط الحياة التي أحببتها تتفكك حولي. الليالي أصبحت ثقيلة، الهواء بارد، وأصواتي تتردد في أرجائي بدون أن يسمعها. الغبار ملأ الأرضية، ورائحة الدخان دخلت من النوافذ المحطمة، وأصبح كل حجر يئن من الذكريات التي يحملها، كأنني أشاركهم الألم بلا قدرة على التخفيف عنهم.

مع كل هذه الفوضى، قرر زوج فيروز أن يحين وقته ورحل عن الحياة. لم تعد فيروز هي فيروز. لم تعد أطفالها أرواح السعادة؛ بل أصبحوا مجرد حطام، يحملون الحزن في كل خطوة ونظرة. أصبحت مائدة العشاء ليلاً، التي كانت مليئة بالطعام اللذيذ والضحك والدفء، صامتة، الأغاني التي كانت تملأ غرفي، الأمسيات التي قضيناها مجتمعين حول البيانو، لم تعد موجودة. وكلما ازداد الصمت، شعرت بجدراني وهي تتمزق، تتشقق تحت وطأة الغياب. شعرت بجسوري تصدأ، وأساساتي تضعف، كما لو أن الحياة التي كانت تجري في داخلي بدأت تتسرب ببطء. كل لوح من أرضياتي تأوه تحت الفراغ، وكل ركن كنت أحتضنه في الضوء أصبح هشًا وأجوف. كنت حيًا بالضحك والموسيقى والدفء، ولكن الآن ارتعشت في صمتٍ عميق حتى بدا الهواء بداخلي جامدًا. الفرح الذي كان يرويني قد رحل، تاركًا إياي ضعيفًا، متعبًا، وخائفًا من أن أنهار تمامًا. حتى أصوات خطواتهم على الأرضية لم تعد موجودة، وكان الصمت ثقيلاً كالسحب الداكنة التي تغطي كل غرفة.

بعد سنوات، انتهت الحرب أخيرًا. هدأت الشوارع، وبدأت الحياة تتعافى ببطء حولي. انتقلت عائلات جديدة إلى المنازل المجاورة، وعادت الضحكات والموسيقى إلى الجدران التي كانت يومًا خاوية. لكني بقيت ما يسمونه بيت فيروز القديم. ثم، في يوم من الأيام، عادت ليس للبقاء، بل لتقول وداعها. كيف لها أن تفعل هذا بي؟ لقد احتضنتها، وحفظت فرحها، واعتنيت بموسيقاها طوال هذه السنوات. كنت أظن أن هذا سيكون إلى الأبد. اللحظة التي عبرت فيها أبوابي وهمست وداعها، شعرت بالانكسار. كل جدار، كل لوح من الأرض، كل شعاع ارتجف من الألم. تركت أحمل ذكريات لا يستطيع أحد لمسها، موسيقى قد تلاشت، وأصداء ضحك لن تعود أبدًا. على الرغم من أن فيروز لم تعد في هذا البيت، فإن موسيقاها دوت في كل حي يمكنني التفكير فيه، وصوتها سيكون إلى الأبد مرساتي، مكاني الآمن. كل زاوية تتذكر لمساتهم، وكل ركن يحن إلى صوت ضحكاتهم، كأنني عالق بين الماضي والمستقبل بلا مخرج. كنت أشعر بكل حجر من حولي يئن من الاشتياق للفرح الذي رحل، وكل خزانة وكل باب يحتفظ بذكريات لا يمكن محوها.

وهكذا أبقى، فارغًا وصامتًا، مطاردًا بحياة لم يكن مقدرًا لها أن تتركني.

يارا حمدان

الصف: الحادي عشر إقتصاد وإجتماع

Hariri Public School